في لقاء مع عالم الاجتماع والمناضل المصري احمد القصير:

مصر تعيش عملية تفكيك وتدمير للنسيج الاجتماعي والنظام عاش واستمر بالأزمات ووصل إلي نهايته

القبيلة في اليمن ليست مشكلة.. المعضلة في النظام السياسي الذي يستخدمها لعرقلة تطور المجتمع المدني

اجرى الحوار: محمود قرني*

الدكتور «أحمد القصير» عالم اجتماع، ومناضل سياسي قضى أكثر من عشر سنوات في سجون عبد الناصر والسادات، ولازال حتى هذه اللحظة فاعلا ومؤثرا في محيطه الثقافي والمجتمعي، وقد قضى شطرا مهما من حياته في تدريس علم الاجتماع بالجامعات اليمنية. وكان الإنجاز المهم الذي قدمه هو قراءة الواقع اليمني بمدخل منهجي جديد. وشملت تلك القراءة القضايا الشائكة التي يتجنبها الباحثون عادة ومن بينها حقيقة الأوضاع القبلية، والتداخل القائم بين الدولة والقبيلة، والتاريخ الثقافي لليمن الحديث.

وكان القصير ضمن رعيل من الأساتذة الذين ساهموا في تأسيس مدرسة في علم الاجتماع عرفت في الأدبيات بـ «مدرسة جامعة عين شمس».

ومنذ أن كان القصير عضوا في تنظيم الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني «حدتو» ولم يأفل له نجم في الواقع السياسي والثقافي، وكان بين أهم ما قدمه من مؤلفات «منهجية علم الاجتماع بين الوظيفية والماركسية والبنيوية»، ثم «شرخ في بنية الوهم: الهجرة والتحول في اليمن». كما ترجم عدة مؤلفات مهمة منها «تشيكوف»، و«أوروبا والتخلف في أفريقيا»، و«التنمية الاقتصادية في الدول النامية»، و «ثورة الحفاة» بالإضافة الى عدد آخر من الأعمال المهمة.

وفي هذا الحوار نلتقي الدكتور أحمد القصير ليحدثنا عن تجربته السياسية والانسانية والثقافية، وكيف يرى المشهد منذ خمسينيات القرن العشرين وحتى الآن.

وهنا نص الحوار:

التكوين والمؤثرات الأولى

■ حدثني عن البدايات، المؤثرات الأولى، القراءات، الجامعة ثم الاشتغال بالسياسة؟

■ المؤثرات الأولى تمثلت في أوضاع عامة وأخرى خاصة. الأوضاع العامة تتركز في الانفراجة السياسية ووصول حزب الوفد بزعامة مصطفى النحاس الى الحكم عام 1950، وظهور مناخ ديمقراطي وهو ما ساعد على صعود ثقافة جديدة تتسم بالطابع الوطني وتدعو الى العدل الاجتماعي والانتماء للوطن. وكانت تجليات تلك الثقافة تظهر عادة في الصحافة قبل أن تتحول الى كتب.

وعلى سبيل المثال كانت هناك صحافة اليسار الماركسي مثل مجلة الكاتب التي أصدرتها حدتو وكان رئيس تحريرها «سعد كامل» ويشرف عليها سياسيا الشاعر «كمال عبد الحليم»، وكان صاحب الامتياز «يوسف حلمي»، سكرتير عام اللجنة المصرية لأنصار السلام وهو محام وسياسي شهير ومؤسس جمعية أصدقاء سيد درويش. وأود أن ألفت الانتباه الى أن هذه المجلة قد نشرت الفكر الجديد وقدمت فنا جديدا، وكانت هي التي نشرت مثلا أول قصيدة بالعامية لصلاح جاهين. كما كانت هناك جريدة المصري الوفدية وأبرز كتابها عبد الرحمن الخميسي. وللعلم فإن الخميسي هو أول من قدم الأديب الكبير يوسف إدريس.

وعلاوة على ذلك شاركت حدتو في إصدار صحيفة الملايين بالتعاون مع صاحبها أحمد صادق عزام في بداية عام 1951 وكان لها هي الأخرى دور بارز في نشر الثقافة الجديدة والفكر الجديد لكنها توقفت في آخر ذلك العام بعد تعرضها لمصادرات عديدة ثم أعيد إصدارها بعد ثورة 23 يوليو 1952 وتم في هذه الفترة أيضاً إصدار مجلة أخرى هي مجلة الغد التي تميزت بوجه خاص بالتركيز على الثقافة والفكر والفنون.

وشمل دور اليسار في هذه الفترة إيجاد دور للنشر أي وسائل نقل أو نشر الثقافة. وقد تأثرت بالأعمال التي نشرتها «دار الفن الحديث» التي أسسها عام 1950 ابراهيم عبد الحليم وكمال عبد الحليم، وهما من قادة حدتو. وكانت تتجمع حول كمال مجموعة متميزة من الأدباء والفنانين وضعوا بصماتهم في الحياة الثقافية. وكانت تلك الدار هي التي نشرت في أوائل عام 1951 الطبعة الأولى من ديوان «إصرار» لكمال عبد الحليم، وقصيدة «من أب مصري للرئيس ترومان» لعبد الرحمن الشرقاوي، وديوان «المعركة» للشاعر الفلسطيني معين بسيسو علاوة على بعض الأعمال الأخرى.

وأود أن أضيف الى إسهامات اليسار في مجال الصحافة كلمات موجزة عن فترة أربعينيات القرن العشرين أي الفترة السابقة مباشرة على ظهور مجلة الكاتب ومجلة الغد في الخمسينيات. فقد أصدرت حدتو أيضا في منتصف الأربعينيات صحيفة «الجماهير» وكان يترأس تحريرها شهدي عطية الذي قتل أثناء تعذيبه بالمعتقل في 15 حزيران (يونيو) 1960. وكتب شهدي في تلك الصحيفة عدة مقالات دعا فيها الى تأسيس حزب شيوعي مصري. وقدم شهدي بعد ذلك في الخمسينيات قراءته في تاريخ مصر. وأعني بذلك كتابه عن «تطور الحركة الوطنية المصرية». وتعتبر فترة أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين مرحلة خصبة شهدت إسهامات ثقافية متميزة لليسار المصري سرعان ما أصبحت من المكونات العامة للثقافة المصرية.. وهناك احتياج الى إجراء دراسات حول تلك المرحلة وتأثيراتها. وقد أهملها الباحثون الاجتماعيون والمؤرخون.

أما المؤثر الثاني فكان انتقالي في عمر صغير عام 1948 من ريف مدينة فاقوس بمحافظة الشرقية لدراسة المرحلة الثانوية بالقاهرة. ولم يكن الانتقال مجرد احتكاك والعيش في مدينة القاهرة. فكان السفر في حد ذاته على طريق المعاهدة المحاذي لترعة الاسماعلية رؤية جديدة حيث كانت القوات البريطانية في ناحية التل الكبير. وكانت توجد لها أحيانا نقاط تفتيش على ذلك الطريق المؤدي الى القاهرة. وكان ذلك أمرا مستفزا فتح بابا للتفكير في أشياء كثيرة.. وفيما بعد ظهر ميلي للبحث عن أفكار تساعدنا على الخلاص من هذه الأوضاع. ولذلك أخذنا نبحث عن أصحاب الفكر الاشتراكي الذي كنا نرى فيه مستقبل البلاد حيث شعرنا أنه فكر يتميز بتنمية الروح الوطنية ويشحن الوجدان بشعور الانتماء.

وقد فصلت من مدرسة حلوان الثانوية عام 1951 بسبب اتجاهاتي اليسارية حسبما جاء في الخطاب الذي أرسلته المدرسة الى أسرتي بمدينة فاقوس. وكنا ننشط في المدرسة وفي مدينة حلوان. ومن أبرز الذين نشطوا معي حزبيا في «حدتو» ابراهيم العشماوي المستشار فيما بعد والذي تم استبعاده من النيابة في نهاية الستينيات ضمن ما يسمى بمذبحة القضاء، كما كان معنا خالد فضل وهو يمني الجنسية ويترأس حاليا حزب التجمع التقدمي الوحدوي اليمني. وكان قد تولى في الثمانينيات وزارة العدل في اليمن الجنوبي سابقا.. كما كان شقيقي عيداروس القصير ضمن تلك المجموعة النشطة حزبيا.. كانت صلاتنا السياسية في حلوان بكل ألوان الطيف السياسي. وكنا على صلة دائمة بالمجموعات النشطة سياسيا لا سيما أحمد صادق عزام وهو من الحزب الوطني القديم، حزب «فتحي رضوان»، وكان عزام يترأس تحرير صحيفة الملايين التي كانت تصدرها حدتو. ولم نكن على علم آنذاك بطبيعة علاقته بحدتو. وهو شخصية جماهيرية في حلوان وكرس جهده للدفاع عن العمال مجانا في حلوان ويتبنى قضاياهم. كما كنا ننسق مع أعضاء حزب مصر الفتاة ثم الوفد في مرحلة لاحقة خاصة عندما شكلنا جبهة وطنية كان يمثل الوفد فيها أبوبكر حمدي سيف النصر.. ومن الشخصيات البارزة التي كنا نتقابل ونتناقش معها في تلك الفترة سيد قطب وذلك بعد أن عاد من أمريكا عام 1951. وكان معنيا آنذاك بالتعليم والقضايا الأدبية. ولم نكن نلحظ أثناء المناقشة معه أي تبرم من اتجاهاتنا اليسارية على عكس ما كنا نجده في الاخوان المسلمين.

النشاط الجامعي

■ وماذا عن فترة الدراسة الجامعية التي شهدت اعتقالك أكثر من مرة؟

■ لم أرتبط بنشاط حزبي يذكر في الجامعة، بل كان لي نشاط علمي وفكري. أما النشاط السياسي فاستمر مرتبطا بمنطقة حلوان بضواحي القاهرة حتى السبعينيات، وكنت مسؤولا عن النشاط الحزبي في تلك المنطقة العمالية. وكانت هذه الصفة تلتصق بي وتظهر تأثيراتها عند حدوث أي توترات في حلوان. ومثال ذلك اعتقالي في 4 كانون الثاني (يناير) 1975 عند قيام عمال حلوان بأحد إضراباتهم الواسعة النطاق رغم عدم تواجدي آنذاك بالمنطقة وعدم وجود صلة لي بذلك الإضراب سوى معرفتي ببعض القادة النقابيين. وكان ذلك هو الاعتقال الرابع.

عندما التحقت بكلية الحقوق جامعة عين شمس عام 1953 لم أحصل على فرصة حيث تم اعتقالي بعد شهرين فقط أي في كانون الاول (ديسمبر) من نفس العام.. وعند الإفراج عني في تموز (يوليو) 1956 وجدت قرارا من مجلس قيادة الثورة بفصلي. فالتحقت بكلية الآداب. وساعدني في ذلك الدكتور حلمي مراد، وهو شخصية عامة معروفة وكان آنذاك وكيلا لكلية الحقوق. وقد استند في التوصية التي أرسلها معي الى الدكتور مهدي علام عميد الكلية آنذاك الى أن قرار مجلس قيادة الثورة لم ينص على الفصل من الجامعة بل من كلية الحقوق.. ولكن تم اعتقالي ثانية في فجر أول كانون الثاني (يناير) 1959 فانقطعت عن الدراسة بقسم الاجتماع بكلية الآداب ولم أعد اليها إلا بعد الإفراج عني في ايار (مايو) 1964. وقد تخرجت في 1967 والتحقت بالدراسات العليا. ولكن انقطعت عن الدراسة مرة ثالثة بسبب اعتقالي للمرة الثالثة في آذار (مارس) 1966. وأثناء وجودي بالمعتقل أرسلت سرا لقسم علم الاجتماع بكلية آداب عين شمس أطلب تسجيل موضوع لرسالة الماجستير ووافق القسم بالفعل على تسجيله، وأرسل يطلب حضوري من المعتقل لمقابلة المشرف على الرسالة. لكن الداخلية رفضت. وبعد الإفراج عني في 7 نيسان (أبريل) 1971 قمت بإعداد رسالة للماجستير في نفس الموضوع الذي تم تسجيله أثناء وجودي بالمعتقل وهو «الأسس المنهجية في علم الاجتماع المعاصر».

في تلك الفترة كان القسم يسمى قسم «الدراسات النفسية والاجتماعية»، لكنه انفصل بعد ذلك الى قسمين، أي قسم لعلم النفس وآخر لعلم الاجتماع. وكان القسم المشترك يضم آنذاك عددا من الأساتذة المتميزين علميا ولدى البعض منهم توجهات يسارية. لكن أود أن أشير الى شخصية علمية شديدة التميز، وهو الدكتور مصطفى زيوار أستاذ علم النفس الشهير. وكان يعمل على حماية الطلبة من أي عدوان ويشجع المتفوقين. وأذكر أنه دون صلة شخصية به عمل على حمايتي من اضطهاد بعض الأساتذة التقليديين. كما قام بتقديمي للدكتور فؤاد زكريا لكي أنشر دراسة كتبتها في مجلة الفكر المعاصر التي كان يترأس تحريرها.

لم أعمل بالتدريس الجامعي إلا بدءا من عام 1980. وقد اشتغلت مترجما فترة ليست قصيرة. كما اشتغلت بالصحافة. وعملت بعض الوقت في السبعينيات مع الصحافي حسنين كروم كأحد سكرتيري تحرير مجلة الكاتب. لكننا استقلنا في ايلول (سبتمبر) 1974 ضمن استقالة جماعية شملت رئيس تحرير المجلة وجميع أعضاء مجلس التحرير لأن يوسف السباعي وزير الثقافة آنذاك فرض رقابة على المجلة. وكنت عضوا بنقابة الصحافيين. لكنني طلبت في الثمانينيات إيقاف عضويتي بالنقابة لأنني كنت أواجه مشاكل عند سفري الى الخارج بسبب مهنة الصحافي المسجلة في جواز سفري. وزادت حدة المشكلة عندما اعتزمت الإقامة في فرنسا في النصف الثاني من الثمانينيات.. وحصلت من نقابة الصحافيين بعد فترة من تقديمي ذلك الطلب على ما يفيد انني لم أعد مسجلا في النقابة، واستطعت بذلك تغيير مهنة الصحافي في بطاقة الهوية وجواز السفر.

مدرسة عين شمس للاجتماع

■ أذكر أنك تحدثت عما يسمى في مصر «بمدرسة عين شمس في علم الاجتماع». نريد مزيدا من الضوء؟

■ في الجامعة أظن أنني كنت أحد المساهمين في عملية ظهور ما سمي فيما بعد «مدرسة جامعة عين شمس في علم الاجتماع». وقد قمت بانتقاد القصور الذي يهيمن على المناهج السائدة في مجال علم الاجتماع في الجامعات المصرية. وكانت المدارس السائدة في علم الاجتماع ولا تزال بدرجة أو أخرى عاجزة عن دراسة الواقع ومتأثرة بالأساس بالمدرسة الوظيفية الأمريكية الى جانب تأثرها بتوجهات فكرية أخرى. من الناحية التطبيقية قدمت هذه المدارس، في أحسن الأحوال، بعض الدراسات الوصفية. وهي بالرغم من كل شيء دراسات هامة وتعتبر مقدمة لدراسة الواقع دراسة جادة ومتعمقة. فالوصف مرحلة أولية في العلم، لكن العلم يحتاج لكي يكتمل الى الانتقال من الوصف الى التحليل. وهذا ما تفتقر إليه المدرسة الوظيفية. وعلاوة على ذلك فإن الدراسات الوصفية التي يعول عليها تعتبر نادرة للأسف، وترتبط بعدد محدود للغاية من أساتذة علم الاجتماع. وأبرز هؤلاء الدكتور حسن الساعاتي بجامعة عين شمس الذي قدم دراسة عن «التصنيع والعمران» بالاسكندرية ودراسة أخرى عن القاهرة هي «مسح باب الشعرية» واعتبرت نماذج يجري تدريسها. وكانت جامعة القاهرة في ذلك الوقت بها بعض التوجهات المتميزة المرتبطة فكريا بالمفكر الفرنسي سان سيمون وتأثير أنصاره في مصر. لكن هذا التوجه ظل محصورا في شخص واحد تقريبا. وعلى أية حال فإن أصحاب المشروعات العلمية نادرون بين أساتذة علم الاجتماع المصريين. وأبرز أصحاب المشاريع العلمية هم الدكتور أحمد أبوزيد والدكتور أحمد خليفة والدكتور سيد عويس.

لفتت التجربة التي ساعد على إيجادها الدكتور السيد بدوي أستاذ علم الاجتماع بجامعة الاسكندرية الذي كان يحضر لتدريسنا بالدراسات العليا بآداب عين شمس انتباه بعض أساتذة القسم. وقد أتاحت تلك التجربة لطلاب الدراسات العليا فرصة مناقشة وانتقاد أوضاع علم الاجتماع وأوجه القصور السائدة.

واقترح بعض الأساتذة استمرار تلك العملية وتعميمها لتشمل أيضا أعضاء هيئة التدريس. ولذلك اقترحوا تأسيس سيمينار أي ندوة أسبوعية بالقسم لطلاب الدراسات العليا وأساتذة القسم. وهو ما حدث بالفعل. ولعبت الندوة دورا في تطوير الأفكار المنهجية بين أعضاء هيئة التدريس والطلاب علاوة على تطوير موضوعات المحاضرات والرسائل الجامعية.

وهناك عوامل أخرى ساعدت في ظهور تلك المدرسة. ومن بينها دور الدكتور حسن الساعاتي رئيس القسم في دعوة أساتذة زائرين متميزين علميا وفكريا لتدريسنا نحن طلاب الدراسات العليا وإلقاء محاضرات لطلاب الدراسات العليا منفردين أو لطلاب الدراسات العليا مع أساتذة القسم. والملاحظ أن أغلب أولئك الأساتذة الزائرين يختلفون فكريا عن الدكتور الساعاتي. وأذكر في هذا المجال «جاك بيرك» المستشرق الفرنسي الذي ألقى علينا محاضرات لمدة شهرين كان يحضرها طلاب الدراسات العليا بعلم النفس وعلم الاجتماع. وأذكر أيضا حضور الدكتور أنور عبد الملك كأستاذ زائر حيث ألقى محاضرات استمرت عدة اسابيع لطلاب الدراسات العليا وجميع الأساتذة بقسم الاجتماع.

دراسات عن اليمن

■ وماذا عن إسهامك الشخصي في عجلة التطوير في مجال علم الاجتماع؟

■ الإسهام الأول نظري يتعلق بالمنهج. وقد أشرت الى ذلك الأمر سابقا عند حديثي عن انتقاد المدارس المنهجية السائدة في علم الاجتماع. فقد أوضحت العجز والقصور في دراسة الواقع. وكتابي عن منهجية علم الاجتماع يجري تدريسه في أكثر من جامعة عربية. أما الإسهام الثاني فهو تطبيقي.. ومن المفارقات أن دراساتي التطبيقية ارتبطت أساسا بالمجتمع اليمني حيث أشعر أنني قدمت نهجا جديدا في تناول قضايا المجتمع اليمني، وبالذات فيما يتعلق بتركيبة ذلك المجتمع المعقدة، وهي تركيبة تخدع الباحثين عادة. وقد انتقدت الدراسات التي أجراها الأوروبيون عن المجتمع اليمني ومن حذا حذوهم من الباحثين اليمنيين. فهي دراسات مضللة بكل المقاييس. ولا تؤدي الى فهم طبيعة ذلك المجتمع خاصة ما يتعلق بالجانب القبلي. وقد اجتهدت في دراساتي العديدة عن المجتمع اليمني بما في ذلك الدراسات الميدانية لتقديم افتراضات معينة وعملت على تحقيقها. ومن المفارقات أنني وجدت ما يساعدني على تحقيق تلك الافتراضات في الأعمال الأدبية اليمنية من شعر ورواية وقصة وأغان شعبية، إذ أن تلك الأعمال كانت أقرب الى فهم الواقع على عكس الدراسات الاجتماعية التي قدمها الأجانب أو بعض اليمنيين.

وأذكر من الأعمال الأدبية الهامة التي تعين أي باحث اجتماعي ديوان «غريب على الطريق» لـ «محمد أنعم غالب»، ويعود هذا الديوان الى خمسينيات القرن العشرين، ورواية «يموتون غرباء» و «صنعاء مدينة مفتوحة» للاديب اليمني محمد أحمد عبد الولي أيضا. وينتمي محمد أنعم ومحمد عبد الولي الى المجموعة التي أسهمت أساسا في إبداع الثقافة اليمنية الحديثة. ويقف في مقدمة هذه المجموعة الشاعر الراحل ابراهيم صادق رائد التجديد في الشعر اليمني، والشاعر عبده عثمان محمد، والمفكر أبوبكر السقاف أستاذ الفلسفة بجامعة صنعاء، والراحل عمر الجاوي الذي كان أمينا عاما لاتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين والملقب بفارس الوحدة اليمنية. وأود أن أذكر أن جميع هؤلاء درسوا في مصر. وكانوا جميعا باستثناء شخص واحد أعضاء بمنظمة «حدتو» أثناء دراستهم بمصر. وهناك شخصيات أخرى لعبت دورا بارزا في الحركة الطلابية اليمنية بمصر وقامت بتجميع الذين ذكرتهم آنفا. وأبرز تلك الشخصيات خالد فضل منصور الذي يترأس حاليا حزب التجمع الوحدوي التقدمي اليمني والذي كان وزيرا للعدل في اليمن الجنوبي سابقا، وطاهر رجب الذي كان مديرا للبنك اليمني للإنشاء والتعمير بصنعاء. وهما من زملائي بالفصل بمدرسة حلوان الثانوية وفي منظمة «حدتو». ولعب الاثنان دورا رئيسيا في تنظيم وتوجيه الطلاب اليمنيين بمصر وربطهم بالفكر التقدمي. وكانا من أول الذين وفدوا الى مصر في تلك الفترة. وقد تبنى جميع من ذكرتهم في حديثي من الطلاب اليمنيين منذ أوائل خمسينيات القرن العشرين فكرة الوحدة اليمنية على أساس الخلاص من الاستعمار في الجنوب والحكم الإمامي المستبد في الشمال وتأسيس حكومة وطنية شعبية لكل اليمن. وقد بنوا نشاطهم على أساس الجمع بين أبناء الشمال والجنوب ورفض التجزئة.

القبلية في اليمن

■ كيف ترى الإشكال القبلي في اليمن، وما هو دور عدن في ظهور شخصية غير قبلية؟

■ تناولت دراساتي عن اليمن دور عدن في ظهور ملامح شخصية يمنية غير قبلية الطابع تحمل ثقافة جديدة وأنماط سلوك غير قبلية. كما عارضت في تلك الدراسات الآراء والمحاولات التي تصور المجتمع اليمني وكأن القبائل تسود أو تنتشر في كافة أرجاء البلاد وهو ما يناقض الواقع. وأوضحت أيضا الأسباب الكامنة وراء تلك التصورات الخاطئة. وفيما يتعلق بمدينة عدن فإنها شكلت منذ منتصف القرن التاسع عشر مركزا جذب أعدادا ليست قليلة من مختلف مناطق اليمن خاصة منطقة تعز. وانخرط هؤلاء في النشاط الاقتصادي الذي بدأ يتسع في المدينة بعد احتلال البريطانيين لها عام 1839. وكانت عدن بالفعل بوتقة انصهر فيها أبناء اليمن الذين وفدوا إليها ليمارسوا مهنا جديدة. وظهرت بالتالي شرائح اجتماعية جديدة. فقد انصهر الجميع في كيان ثقافي جديد مدني الطابع. وكان ذلك وراء ظهور النوادي والمنتديات الثقافية ثم النقابات والأحزاب.

وفيما يتعلق بالأوضاع القبلية نجد أن معظم الكتابات عن اليمن تقدم صورة خاطئة وغير دقيقة. وتحمل تلك الكتابات عادة توجهات إيديولوجية ينشرها بعض الباحثين الغربيين بوجه خاص. كما تعمل بعض الدوائر اليمنية، خاصة الرسمية، على تغذية تلك التوجهات وترويجها. ويميل البعض عادة إلى التضخيم في وضع القبيلة في المجتمع اليمني. ويصل هذا التضخيم أحيانا إلى حد تصوير القبيلة وكأنها البديل للمجتمع. وهو المفهوم الذي كان يتبناه القاضي محمد محمود الزبيري الشاعر والسياسي اليمني الشهير سواء في أفكاره السياسية أو في برنامج حزب الله الذي أسسه بعد ثورة 26 سبتمبر 1962 بعدة سنوات. كما ردد الزبيري نفس هذه الأفكار عن القبيلة بوضوح شديد في روايته «مأساة واق الواق». فهو يعتبر مثلا أن القبيلة هي القوى التي «تسكب كل دم جديد في عروق المجتمع كلما شاخ».

إن المشكلة التي يواجهها المجتمع اليمني لا تكمن في وجود القبيلة والانتماء القبلي في بعض المناطق بقدر ما تكمن في عملية استغلال ذلك الوجود القبلي بهدف عرقلة تطور المجتمع المدني. ومما يثير الانتباه أن أصحاب القرار الفعلي في الدولة ينتمون الى تلك المناطق القبلية. إن غالبية سكان اليمن لا ينتمون إلى قبائل. وتوجد القبائل في المناطق المحيطة بالعاصمة صنعاء وشمالها ونواح أخرى مثل مأرب والجوف. وتتسم المناطق القبلية عادة بالفقر في الموارد، وندرة الأمطار، وضعف الكثافة السكانية، وانخفاض نسبة التعليم. إن ضعف الدولة جعلها تعتمد على القبائل لتقوية وضعها في مواجهة حركات المعارضة ومؤسسات المجتمع المدني الحديث. وكان نهج الاعتماد على القبائل وتقويتها سياسة ثابتة في اليمن الشمالي قبل الوحدة. كما تم اتباعه بعد الوحدة خاصة أثناء الحرب الأهلية عام 1994.

إن سبب النفوذ القبلي يعود أساسا الى وجود تداخل بين القبيلة وأجهزة الدولة.. وقد حدث ذلك التداخل بين القبيلة والدولة بعد الإطاحة بحكم الرئيس السلال في أعقاب انسحاب القوات المصرية من اليمن عام 1967. ولعب حكم القاضي عبد الرحمن الإرياني الذي تولى الرئاسة بعد الانقلاب ضد السلال دورا أساسيا في تكريس هذه العملية التي أصبحت سياسة ثابتة منذ ذلك الحين باستثناء فترة قصيرة هي فترة حكم الرئيس الحمدي. لكن سرعان ما تم اغتياله وعاد نهج تكريس التداخل بين القبيلة والدولة من جديد ليستمر حتى الآن. وعلاوة على ذلك هناك مسألة أخرى تقوي العلاقة بين الدولة والقبيلة تعود أصولها الى أيام الإمامة وهي التزاوج بين القبيلة والإمامة ومذهبها الزيدي وذلك على الرغم من التناقض المفترض بين الطرفين. ولا تزال تأثيرات ذلك الأمر على الحياة السياسية اليمنية موجودة حتى الآن. فقد كانت الإمامة تعتمد على القبائل في حروبها بينما كانت القبائل تستفيد من الغنائم التي تحصل عليها خلال تلك الحروب وتسد بها العجز في مواردها المعيشية. لقد ركزت دراساتي حول اليمن باستمرار على إبراز هذه الحقائق التي تبدو غائبة عند الدارسين والاكاديميين الذين يؤثرون السلامة ويبتعدون عن تناول القضايا التي تبدو شائكة.

الماركسية وعلم الاجتماع

■ هل تعتقد أن الماركسية أفادت علم الاجتماع من واقع وعيك وقناعتك بها؟

■ الماركسية قيمتها الأساسية أنها تقدم منهجا للتفكير والتحليل. وكثير من المفكرين والباحثين غير الماركسيين يلجأون الى الماركسية لاستخدام ما تقدمه من منهج سواء كان ذلك في تحليل الطبقات

احمد القصير

أو تحليل الظواهر الاجتماعية عامة. وهي ضرورية وملائمة لفهم الواقع بصرف النظر عن الصواب والخطأ في الاجتهادات الرامية الى فهم ذلك الواقع. ومن أبرز الذين لجأوا الى الماركسية على سبيل المثال البنيويون سواء في علم النفس أو علم الانسان، ومن أبرزهم ليفي شتراوس عالم الآنثروبولوجيا الفرنسي الشهير الذي قال إنه عندما يفكر في بعض القضايا العلمية فإنه عادة ما ينعش ذهنه بقراءة بضع صفحات من كتاب «الثامن عشر من برومير» لماركس.

مصر الآن

■ وكيف تقيم الوضع في مصر الآن من واقع خبراتك؟

■ نبدأ اولا بالجامعة ثم ننتقل الى المجتمع.. ومعرفتي ليست شاملة فيما يتعلق بالجامعة. لكن يمكنني الحديث عن علم الاجتماع حيث يبدو أن ما سطع في عين شمس مثلا آخذ يسير نحو الأفول. ويعود ذلك الى أن نسبة من الأجيال الجديدة ضعيفة علميا ولا تلتزم أخلاقيا بالتقاليد الجامعية.

وهذا الضعف في مجال الجامعة له علاقة بضعف كافة مؤسسات المجتمع. فقد شهدنا في السنوات الأخيرة عملية تفكيك وتدمير لكل شيء. وشمل التدمير النسيج الاجتماعي، ومختلف مؤسسات المجتمع، والقيم، وأنماط السلوك. بل وتحاول تلك العملية إصابة شعور الانتماء للوطن. وكأن هناك عملية جهنمية شيطانية تمضي بنا الى طريق العدم والانهيار. وهو وضع مخيف قد يفضي الى بشاعة لا يمكن تخيل مداها. وهناك ضرورة الى وقفة ومشروع للنهوض لإيقاف عملية التدمير التي تحدث للوطن.

ومن الأشياء التي تجعل الإنسان لا يفقد الأمل أننا لا زلنا نرتبط بالتراث الوطني الذي تأسس في العصر الحديث خاصة الذي تأسس على امتداد عدة عقود من القرن العشرين. وهو تراث شكل وجدانا عاما قائما على ثقافة وطنية ارتبطت برموز عظيمة. واعتقد أن تلك الثقافة وذلك الوجدان أوقفا من سرعة المضي في طريق التفكيك والتدمير.

■ وما هو الحل الذي تراه مرشحا للقبول العام حيال المأزق الوطني الراهن؟

■ اعتقد أن الحل ليس عن طريق طرح أسئلة من هذا النوع. فالمسألة أكثر تعقيدا من ذلك. فلا بد ان يجتمع أبناء الوطن على شيء واحد وهو حماية هذا الكيان من الانهيار، وهنا لا بد من أن نستبعد أي عناصر سوى عنصر الانتماء للوطن والمواطنة. فالمواطنة هي المعيار الوحيد للانتماء والمشاركة على قدم المساواة في الشأن العام. وأي صيغة غير ذلك لن تمنع مثلا الفتنة الطائفية بل ستتيح الفرصة لزيادة تفتيت نسيج المجتمع. ومن يرفض مبدأ المواطنة بدعوى أنه يتميز على سبيل المثال بحمل لواء ديني فإنه سيجعلنا أسرى للأوضاع الخطيرة الراهنة.. ويستلزم مبدأ المواطنة استبعاد الرداء الديني الذي تتدثر به بعض الجماعات العاملة بالسياسة والشأن العام. وعلينا أن نعي أن تراثنا الوطني هو الذي طرح فكرة أن الدين لله والوطن للجميع. واستمرار الوضع الراهن يعمق الأزمة ويزيد نطاق الفوضى ويضعف الدولة، ولا يؤدي الى أي تغيير حقيقي. وتعيش مصر بالفعل فوضى مستمرة حتى دون أحداث بارزة. وهنا مصدر الخطر الأكبر الذي يضع مصر أمام المجهول.. وأذكر أن بشاعة التدهور أدت الى اتساع نطاق الوعي ووصوله الى فئات عديدة ومجموعات مختلفة، ومن هنا اتسع نطاق التذمر والغضب. وقد عاش النظام الحالي واستمر من خلال استغلال الأزمات لصالحه وتركها دون معالجة، بل يعمل أحيانا على زيادة حدتها. لكن ذلك لا يمكن أن يستمر للأبد. واعتقد ان المسألة أوشكت أن تصل الى نهايتها. ويبدو أن العيش بالأزمات ملمح يميز الأنظمة الديكتاتورية التي ترى ان الاستقرار يحول بينها وبين الاستمرار.

* كاتب وصحافي من مكتب «القدس العربي» في القاهرة

من الشخصيات البارزة التي كنا نتقابل ونتناقش معها في تلك الفترة سيد قطب وذلك بعد أن عاد من أمريكا عام 1951... وكان معنيا آنذاك بالتعليم والقضايا الأدبية ولم نكن نلحظ أثناء المناقشة معه أي تبرم من اتجاهاتنا اليسارية على عكس ما كنا نجده في الاخوان المسلمين